﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

[التّوبة: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّصريحُ بعدَ التَّلميحِ أثبتُ للمعنى في نفوسِ المخاطَبين

لَمَّا نفى عنهم المساواةَ من غير تصريحٍ بأهلِ التَّرجيحِ؛ ليشتدَّ التَّشوُّفُ إلى التَّصريحِ، فيكونَ أثبتَ في النَّفسِ وأوقرَ في القلب، كانَ كأنَّه قيل: فمَنِ الرَّاجحُ؟ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[1].

وأيضًا: لَمّا ذكر ترجيحَ الإيمان والجهاد على السِّقاية وعمارة المسجد الحرام، على طريق الرَّمز بنفي التَّساوي بين الطَّرفين، وذكَرَ الطَّرفَ المرجوحَ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أتبعَهُ بذكر الطَّرفِ الرَّاجحِ على سبيل التَّصريح؛ ليُظْهِرَ للنَّاس أوصافَهم، وليُعلَمَ سببُ رجحانِهم على غيرِهم، فجاءت هذه الآية[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: الهجرُ: ضدُّ الوصلِ، والمُهاجرَةُ: مصارمةُ الآخرِ ومتاركتُهُ بحدَّةٍ ومغاضبةٍ، والهَجْرُ والهِجْرَان: مفارقة الإنسان غيره، إمَّا بالبدن، أو باللِّسان، أو بالقلب، ومنه الهاجرةُ: نِصفُ النَّهار عند اشتداد الحر، وسمِّيت هاجرةً؛ لأنَّ النَّاس يستكنُّون في بيوتهم، كأنَّهم قد تهاجروا، وسُمِّيَ الإفحاشُ في القولِ هُجْرًا؛ لأنَّه من المهجور الذي لا خيرَ فيه، وأُطلقتِ الهِجرةُ على ترك الموطن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13.

والحلول ببلد آخر، ومعنى ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: تركوا مكَّةَ إلى المدينة خوفًا على دينهم، وأَمنًا على أَنفسِهم من أَذى المشركين[1].

2) ﴿دَرَجَةً﴾: يدور معنى الدَّرج على ضمٍّ أو احتواءٍ في مَضَمٍّ للنَّقل أو معه، برفق، أي: شيئًا بعد شيء، ففي اللَّفظ معنى الانتقال ببطءٍ ومهلٍ، يقال: درجَ الصَّبيُّ، إذا ابتدأ في المشي، ومنه دَرَجُ البناء مراتبُ بعضها فوق بعض، ودَرَجُ السُّلَّم التي يرتقى بها إلى غرفةٍ أو سطحٍ شيئًا فشيئًا، ومن المعنويِّ الدَّرَجَة نحو المنزلة، لكن يقال للمنزلة: دَرَجَة إذا اعتُبرت بالصُّعود دون الامتداد على البسيطة، كدَرَجة السَّطح والسُّلَّم، ويُعبَّر بها عن المنزلة الرفيعة عند الله، ويقال: فلان يتدرَّج في كذا، أي: يتصعَّد فيه درجة درجة[2].

3) ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: الفوزُ هو الظَّفرُ بالخير مع حصول السَّلامةِ، كما يطلقُ على النَّجاة من الهلاكِ وإن لم يظفر بشيءٍ، يقال: فاز يفوز، وهو فائزٌ؛ إذا نجا من عبور الصَّحراء، وخلصَ منها، ومنه قالوا: الفوز النَّجاةُ، وفاز بالأمر؛ إذا ذهب به وخلص، وما جاء في القرآن الكريم من لفظ الفوز ومشتقَّاتِه هو الفوز بمعنى النَّجاة وما يلزمها من التنعُّم بنعمِ الجنَّة[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا بتوحيدِه، وهاجروا دُورَ قومهم، وجاهدوا المشركين في دينِ الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند الله، وأرفعُ منزلةً عندَه، مِنْ سُقَاةِ الحاجِّ وعُمَّارِ المسجدِ الحرامِ، وأولئكَ الذين وصفْنا صفتَهم، أنَّهم آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا هم الفائزونَ بالجنَّةِ، النَّاجونَ من النَّارِ[4].

التَّفاوتُ في الأوصافِ يوجبُ التَّمايزَ في الدَّرجاتِ في الدُّنيا والآخرة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هجر).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (درج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/173.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

جاءتِ الآيةُ على طريق الفصل؛ وبيانُ مناسبتِه: أنَّه لمّا بيَّن عدمَ استوائهم مع الكافرين وذكر الفريق المرجوحَ، وبيَّن أنَّ الله لا يهدي القومَ الظَّالمين، وأنَّ اتِّصافَهم بالظُّلم هو سببُ عدم اهتدائهم، فكأنَّ سائلًا سألَ: هذا ما أعدَّ الله للذين ظلموا أنفسَهم بالكفرِ، وظلموا غيرَهم بالصَّدِّ عن سبيلِه، فماذا أَعدَّ الله للفريق الآخر؟ فبيَّنَ الله تعالى ما أعدَّه للمؤمنين بذكرِ درجتِهم عندَه سبحانه؛ للإعلام بفضلِ مرتبَتِهم ودرجتِهم[1].

تكريمُ المؤمنين ببيانِ مقامِهم عندَ اللهِ

دلالةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول وصلتِهِ:

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ للإيذانِ بأنَّ جملةَ الصِّلةِ معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبين، وللإيماء إلى أنَّ الخبرَ المبنيَّ عليه من جنسِ المدحِ والثَّواب، كما أفاد ذكرُ الصِّلة بيانَ سبب بناء الخبر على المبتدأ، أي: هم بسببِ اتِّصافِهم بهذه الأوصافِ الجميلة أعظم درجةً عند الله، فالمقصود تفضيلُ خصالِهم، وفي التَّعبيرِ تعريضٌ بتعظيمِ الأوصاف الجليلة وتعظيم شأنِ الخبرِ، بالإيماء إلى أنَّ الخبر المذكور ممَّا لا يكونُ لأيِّ أحدٍ، بل هو لقومٍ مخصوصين[2].

تفضيلُ خصالِ المؤمنين وتعظيمُ شأنِ الدَّرجة عندَ الله

مناسبةُ ترتيبِ الأوصاف، في جملة الصِّلة:

جاءتِ الأوصافُ مرتَّبةً على وَفْقِ ترتيبِها في الوقوع، فإنَّ الإيمانَ هو الأصل، ثمَّ إنَّ المؤمنين وقتَ نزول القرآن هاجروا، ثم جاهدوا في سبيلِ الله بأموالِهم وأنفسهم، وزيادةُ الهجرة وتفصيل نوعَي الجهاد على ما ذكِرَ في الآية السابقةِ للإيذان بأنَّ ذلك من لوازم الجهاد[3].

أصلُ الأعمالِ وأساسُها، هو الإيمانُ بالله تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53.
(2) السكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 220.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/53، والآلوسي، روح المعاني: 5/262.

نكتةُ مجيءِ الفعل بصيغة الماضي:

جاءت الأفعالُ ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ بصيغة الماضي؛ للإشعار بأنَّهم أوقعوا هذه الأفعالَ، وتحقَّقوا بها.

دلالةُ صيغةِ المفاعلة:

المشاركةُ وبيانُ المشقَّةِ وبذل الجهد

واشتقَّ لها صيغةَ المفاعلة (هاجَرُوا)؛ لبيان شدَّةِ المفارقة والمجاذبة؛ لاختصاصها بالهجر القويِّ، وهو هجر الوطن.

فائدةُ حذْفِ متعلَّق الفعلين ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾:

لا إيمانَ غيرُ الإيمانِ بالله وحده المعروفِ المعهود في الأذهانِ

لم يقل: (آمنوا بالله)، فحذف المتعلَّق؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه، وليفيدَ أنَّه لا إيمان غيرُ الإيمانِ بالله وحده المعروف المعهود في الأذهانِ؛ لما تدلُّ عليه جملة الصِّلة من كونِها معلومة الانتساب عند المخاطَبين، وأنَّه إنْ وُجِدَ غيرُ هذا الإيمان المعهودِ فهو عدمٌ بالنِّسبة إليه[1]، كما أفادَ الحذفُ العمومَ، والمعنى: آمَنُوا باللهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وصدَّقوا بجميعِ ما أخبرَ به الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ وبجميعِ ما دعا إليه[2]، ومثلُه ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ فقد أفادَ عمومَ ما يُهجَرُ في سبيلِ الله، أي: هجروا جميع ما تحبُّه أنفسُهم وتهواه، وتميلُ إليه القلوبُ، ويدخل فيه هجرةُ الأوطانِ وتركُ الأقاربِ دخولًا أوَّليًّا.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

مناسبةُ كلِّ آيةٍ نظْمَها وسياقَها في التَّقديم والتَّأخير

جاء في سورة الأنفال تقديمُ آلات الجهاد على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 72]، وقال هنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، فقدَّم بيانَ السَّبب ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذِكر آلاتِ الجهادِ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان الكلامُ في سورة الأنفال على النَّفل والفيءِ، وجاء فيها إنكارُ الله تعالى على من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/319.

يريد عرضَ الدُّنيا من المالِ والدَّعة والرَّاحة على الآخرة؛ ناسب تقدُّمَ الأموال والأنفس في آية الأنفال، بخلاف سورة التَّوبة التي أبطلَ اللّه فيها ما أتى به المشركون من عِمارةِ المسجدِ الحرام، وسِقايةِ الحاجِّ من المقام على الكُفْر، فإنَّ سقايتَهم الحاجَّ وعمارتهم المسجدَ الحرامَ كانت للتَّفاخر، وليست في سبيل اللّه، فكان المندوبُ إليه في آية التَّوبة بعدَ الإيمان باللّهِ الجهادَ في سَبيلِ اللّه، ثم ذكرَ تفصيلَ الأمر بذكر آلاتِ الجهاد، فقال سبحانه بَعْده مادحًا لِمَن تلقَّى بالطاعةِ أَمْرَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، فناسبَ كلَّ آيةٍ ما ذُكِر، ولم يُناسِب العَكْس[1].

ويقالُ أيضًا: الأصل أن يُقدَّم ذِكرُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذكرِ آلاتِ الجهادِ، فالإخلاصُ شرطٌ في القبول، ولمّا كان المقصودُ في سُورةِ الأَنفالِ مع المِدْحةِ تعظيمَ الواقعِ منهم من الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ بالأموالِ والأنفسِ، وتَغبيطَهم بما مَنَّ اللّهُ عليهم به من ذلك، وتفخيمَ فِعْلِهم المُوجِبِ لموالاةِ بعضِهم بعضًا؛ قُدِّم ذِكْرُ الأموالِ والأَنفُسِ؛ للاهتمامِ بها والعنايةِ بشأنِها؛ فإنَّهم بادَروا بها على حُبِّها، وشُحِّ الطِّباعِ بها، وليس تأخيرُ هذا المجرورِ كتقديمِه؛ لأنَّه إنَّما يُقدَّمُ حيثُ يُقصَدُ اعتناءٌ وتخصيصٌ وتنبيهٌ على مَوقِعه؛ فإنَّما قُدِّمَ هذا تغبيطًا لهم، وإعظامًا لفِعلهم، أمَّا آيةُ سُورةِ التَّوبةِ؛ فقد جاء على الأصلِ؛ لأنَّه تعريفٌ بأمرٍ قدْ وقَع، مبنيٌّ على التَّعريفِ بالمُفاضَلةِ بين سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المسجدِ الحرام، وبَين مَن آمَن، وهاجَرَ، وجاهَدَ في سبيلِ اللّه بمالِه ونَفْسه؛ بقَصْد رَدِّ مَن ظنَّ أنَّ السِّقايةَ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضلُ، وعَرَف أنَّ الإيمانَ، وما ذُكِر معه أعظمُ درجةً عند اللّهِ، فلم يَعرِضْ في آية التَّوبة داعٍ إلى تَقديمِ ما قُدِّم في آية الأنفال، فوَجَب بمقتضى اللِّسانِ أنْ يُقدَّم في آيةِ الأنفال قولُه: بـ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 72]، ويُؤخَّرَ في سورة التَّوبةِ؛ لِيناسبَ ما ذُكِر، وبذلك ظَهَر وجهُ تَخصيصِ ما وَقَع في كلٍّ من السُّورتَين بموضعِه[2].

وقيلَ: لمّا كانت آيةُ الأنفال أوائلَ الأمر بعد وقعةِ بدر في السَّنة الثَّانية من الهجرة، وكان الحالُ إذ ذاك شديدًا جدًّا، والأموالُ في غاية القلَّة، والأعداء لا يُحصَون، ناسبَ تقديمُ المالِ والنَّفس للاهتمامِ بشأنِهما ترغيبًا في بذلهما، وأمَّا سورةُ التَّوبة؛ فنزلت في

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/696 - 698.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/225.

غزوة تبوك في أواخر سنة تسع، فكان المال قد اتَّسع، والدِّينُ قد عزَّ وضخم وقوي وعظم، وأسلم غالبُ الناس، فبعدت مواضع الجهاد، فعظمت المشقَّة، وتواكلَ النَّاس بعضهم على بعض، ورغبوا في الإقبال على إصلاح الأموال، فناسب بداءةُ في آية التَّوبةِ بالسَّبيل[1].

دلالةُ ﴿فِي﴾ بين السّببيّة والظرفيّة:

قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فِي﴾ سببيَّة؛ لبيانِ سببِ جهادِهم، والمعنى: جاهدوا من أجلِ سبيلِ الله حتَّى لا يصدَّ عنه صادٌّ، فتظهرَ محاسنُه، ويسهلَ المرور فيه من غيرِ قاطع، ولعلَّه عَبّر بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يكون المجاهدُ متمكِّنًا مِنَ السَّبيل تمكُّنَ المظروفِ من ظرفهِ، حتَّى يكونَ الدِّينُ غالبًا عليه، لا يخرجُ عنه بوجهٍ من الوجوه[2].

الجهادُ لايكونُ مقبولًا إلَّا إذا كانَ في سبيلِ الله

دلالةُ الإضافةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الإضافةُ على معنى اللَّام؛ لتفيدَ تخصيصَ السَّبيلِ، أي: هو سبيلٌ للّه لا لغيرِهِ، وفيه تشريفٌ للسَّبيلِ وتعظيمٌ له بإضافتِه إلى الاسمِ الجليل.

كلّ ما يضاف إلى الجليل فهو جليل

مناسبةُ تقديمِ الأموال على الأنفس:

في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، قَدَّمَ ذكرَ الأموال على الأنفسِ في كلِّ المواضعِ التي ورد فيها ذكرُ الجهادِ بالأموالِ والأنفسِ لأسبابٍ، منها: أنَّ الأموالَ كانت في غايةِ العزَّةِ في أوَّلِ الأمرِ، وأنَّ الجهادَ بالمالِ أخفُّ على النُّفوسِ من الجهادِ بالنَّفس، فسلَك في ذلك مسلكَ الترقِّي من الأدنَى إلى الأعلَى، وأنَّ من بذلَ مالَه في سبيل اللّهِ كلَّه؛ لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قِوامُها، كما أنَّ الأموالَ هي التي يُبدأُ بها في الإنفاقِ، والتجهُّزِ إلى الجهادِ، فرتَّب الأمرَ كما

الجهادُ بالمالِ أخفُّ على النُّفوسِ من الجهادِ بالنَّفس، والمالُ أوَّلُ آلاتِ الجهادِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337 - 338.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

هو نفسُه، وأيضًا ضرورةُ الجهادِ بالمالِ أكثرُ من ضرورتِها بالنَّفسِ، حتى إنَّ الذي يجاهدُ بنفسِه محتاجٌ إلى المالِ، فما الذي يُوصلهُ إلى ميدانِ القتالِ إلَّا الأموالُ[1]؟

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَعۡظَمُ﴾:

وصفُ الأعظم يكون من جهاتٍ متنوِّعةٍ، منها: أنَّ درجتَهم أعلى رتبةً وارتفاعًا، وأنَّها أوفى فخامةً وأكثر كرامةً ممَّن لم يتَّصف بها كائنًا مَنْ كان، وإن حاز جميعَ ما عداها من الكمالات التي من جملتها السِّقايةُ والعمارة[2].

تعظيمُ الدَّرجةِ يدلُّ على علوِّ الرُّتبةِ وفخامتِها، وكثرةِ ثوابِها عندَ الله

بلاغةُ الاستعارة:

قوله: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، لمّا كانت حقيقةُ الدَّرجةِ أنَّها جزءٌ من مكانٍ يكون أعلى من جزءٍ آخرَ متَّصلٍ به، بحيثُ تتخطَّى القدمُ إليه بارتقاءٍ من المكان الذي كانت عليه بصعودٍ؛ كان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿دَرَجَةً﴾ عن الرِّفعةِ والمكانةِ العالية على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شبَّه المزيَّة في علوِّ الفضلِ ووفرةِ الثَّواب بدرجة السُّلَّم المرتفعة الثَّابتة والتي تكون لأهلِ الشَّأن؛ ونكتةُ التَّعبير بالاستعارة هنا الإشعار بأنَّهم ارتقوا في درجتهم، وصعدوا إليها بما قدَّموه في سَيْرِهم من المحاسن والأعمالِ الفاضلة[3].

ارتقاءُ الدَّرجاتِ عندَ اللهِ، بمحاسنِ الأعمالِ وصلاحِها

دلالةُ تنكيرِ ﴿دَرَجَةً﴾:

أفادَ التَّنكيرُ هنا تعظيمَ الدَّرجة وتفخيمها فالدّرجة عند الله مقام ورفعة.

فائدةُ وضْعِ الظَّاهر موضع المضمر:

كان الظَّاهر أن يقول: (وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/153، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/327، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/319، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/264.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/401.

وأنفسهم أعظم درجة عنده)، لكنَّه كرَّر الاسمَ الجليل مع قربِ ذكرِه، فقال: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ ليكون على خلافِ مقتضى الظَّاهر، لِما يفيدُه تكرير الاسمِ الجليل من مزيدِ ترغيبٍ في تحصيلِ هذه الصِّفاتِ لخطر المقام وصعوبة المرام، ولِمزيدِ مهابةٍ في تعظيم الدَّرجةِ[1].

تعظيمُ الدَّرجة بتعليقِها بالاسم الجليل، زيادةً في المهابةِ

سببُ عدمِ ذِكْرِ الطَّرف المرجوح، في آية أعظميّة الدّرجة:

لم يقلِ اللّه تعالى: (أولئك أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية والعمارة) مثلًا؛ لأنَّه لو خصَّصَ المتعلَّق فعيَّن ذكرهم؛ لأوهَمَ أنَّ فضيلتَهم إنَّما حصلت بالنِّسبة إلى الطَّرفِ الآخر، فكانت الفضيلةُ مخصوصةً، ولمَّا ترك ذِكْرَ المرجوح، دلَّ ذلك على عموم المتعلَّقِ، فأفادَ أنَّهم أفضلُ من كلِّ من سواهم على الإطلاق، لأنَّه لا يعقل حصولُ سعادةٍ وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكملَ من هذا الصِّفاتِ[2]، كما أنَّه ليس للكافرين درجة عند اللّه حتى يقالَ: المؤمنُ أعظم درجةً من الكافر عندَ اللّه، فيكون ذِكْرُ الدَّرجة على طريق أنَّهم أوهموا أنفسَهم بأنَّ لهم درجةً بالعمارةِ والسَّقي، فخاطبهم على ما قدَّروه في أنفسهم، ليكونَ الكلامُ أوقعَ حجَّةً على الكافرين وأروحَ لنفوسِ المؤمنين، ويحتمل أن يكون التَّفضيل بين المؤمنين أنفسِهم، ويَكُونُ التَّقْدِيرُ: أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يُهَاجِرُوا، وَلَمْ يُجَاهِدُوا، ويحتمل كذلك أن تكونَ صيغةُ ﴿أَعۡظَمُ﴾ ليست على بابها من التَّفضيل، فكأنَّه قال: عظيمو الدَّرَجَةِ[3]، ويكون نكتةُ التَّعبير بصيغة أفعل التَّفضيل هي بيانَ أنَّ هذه الدَّرجَةَ لا مرتبةَ فوقَها ولا مزيَّةَ بعدها.

أعظمُ سعادةٍ للإنسانِ، الاتِّصافُ بالإيمانِ والهجرةِ والجهادِ في سبيل الله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/418.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/14.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/389.

فائدةُ الظَّرف في المركّب الإضافي:

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، لمّا كان (عندَ) ظرفًا للقربِ؛ أفادَ أنَّ الدَّرجة العظيمة الرفيعة في مكانتِها هي درجةُ قربٍ من اللّه، كما أفادت إضافة الظَّرف إلى الاسم الجليل رفعةَ هذه الدَّرجة القريبةِ، وأنَّها عند اللّه بمقامِ الرِّضا والتَّشريف بسبب الإضافة التي تفيد التَّخصيص أيضًا[1].

الدَّرجةُ العظيمة هي درجة قربٍ عندَ اللّه، وهي في مقامِ الرِّضا والتَّشريفِ

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أفادَ اسم الإشارةِ أنَّهم استحقُّوا الفوزَ لأجل تلك الأوصافِ التي ميَّزتهم أكملَ تمييزٍ، وهي الإيمانُ والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس، كما نبَّه مجيءُ اسمِ الإشارةِ الَّذي للبعيدِ على بُعدِ منزلتِهم في الرِّفعةِ والمكانةِ وعلوِّها بما اتَّصفوا به مِنَ الخِصالِ الجميلةِ[2].

علوُّ مكانةِ المتَّصفين بالأوصاف النَّبيلةِ

دلالةُ ضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أفادَ ضميرُ الفصلِ تأكيدَ معنى المسندِ إليه وتقريرَه، وليفيدَ كذلك تأكيدَ قصرِ المسندِ على المسندِ إليه كما تقدَّم.

تأكيد الفوز بضمير الفصل، ضمان ممّن بيده الفصل

بلاغةُ الحصرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، لمّا جاء المسندُ والمسند إليه معرفتين وتوسَّطهما ضميرُ الفصلِ؛ كان الكلامُ على أسلوبِ الحصرِ، لتقرير المعنى وتمكينِه في الذِّهن، وأفاد الأسلوبُ قصرَ وصفِ ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وتخصيصَه بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفين بالإيمان والهجرة والجهادِ في سبيل اللّه، وفي هذا القصرِ وجهان: أحدُهما أن يكونَ بالنَّظر إلى المؤمنين، فيكونَ المرادُ كمالَ الفوز، فإنَّه لمّا كان بعضُ المؤمنين لم يتسنَّ لهم الهجرةُ والجهاد؛ دلَّ على أنَّ القصر

إنَّما الفوزُ للمؤمنين ولا فوزَ للمشركين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/148.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/149.

هنا من قصرِ الكمال، والمعنى: أولئك هم الكاملون في الفوز، وهو على هذا الوجه قصرُ إفرادٍ؛ بمعنى: يزيل شِرْكةَ فريقِ المؤمنين الذين لم يهاجروا، ولم يجاهدوا في سبيل الله من كمالِ الفوز، والوجه الثاني: أن يكون بالقياسِ إلى المشركين، بأنْ تكونَ المفاضلةُ وقعت بين من لم يُؤمن بالله وبين من آمن بالله، فيكونَ قصرًا إضافيًّا، والمعنى: أولئك هم الفائزون دونَ المشركين، والقصر على هذا الوجه إمَّا أن يكون قصرَ قلبٍ؛ ليفيدَ قلبَ ما توهَّمه المشركون من أنَّهم هم الفائزون دونَ غيرِهم لما قاموا به من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجدِ الحرام، فيكون المعنى: أولئك هم الفائزون لا أنتم، وإمَّا أن يكون قصرَ إفرادٍ إنْ كان المشركون يظنُّون أنَّهم شاركوا المؤمنين في أعمالِ البرِّ، وأنَّهم فائزون أيضًا بهذا العمل، فيكون معنى القصر: أولئك هم الفائزون دونكم أيُّها المشركون، والمراد من الفوز على هذا الوجهِ مطلقُه، ويحتمل أن يكون القصر ادِّعائيًّا للمبالغة في عظم فوزهم، حتى إنَّ فوزَ غيرهم بالنِّسبةِ إلى فوزِهم يُعدُّ كالمعدوم، وعلى جميعِ وجوهِ القصرِ لا فوز للمشركينَ أصلًا[1].

دلالةُ صيغة اسم الفاعل في لفظ: ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾:

من وصفه الله بالفوز، صار له سجيّةً، واتّصل به وصفُه

أفاد التَّعبيرُ بصيغةِ اسم الفاعل أنَّهم متَّصفون بالفوز، حتَّى صارَ سجيَّةً لهم، كما دلَّت الصِّيغةُ على دوامِ اتِّصافِهم به؛ ليفيدَ دوامَ مدحهم والثَّناء عليهم.

نكتةُ حذفِ متعلَّق اسم الفاعل:

الفائزونَ همُ الظَّافرونَ بنعيمِ اللهِ، والنَّاجونَ من عذابِهِ في الدُّنيا والآخرةِ

لمّا كان الأصلُ أنْ يكونَ لفظُ الفوزِ له متعلَّقٌ يبيِّن المحصَّلَ بالفوز، وكانَ محذوفًا هنا؛ دلَّ على عمومِ المتعلَّق بمعنى عمومِ فوزِهم، ويؤيِّده مجيءُ (أل) الاستغراقيَّة التي تفيدُ نيلَهم كلَّ ما يرغبون

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/670، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/183، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/148.

فيه ونجاتَهم من كلِّ مهلكةٍ يتوقَّعونها، أي: هم الظَّافرون بنعيم الله وكرامته، والناجون من عذاب الله ونقمته، كما يفيد اللَّفظُ عمومَ الزَّمانِ كذلك، أي: هم الفائزون بالخيرِ في الدُّنيا والآخرة[1].

سببُ اختيار لفظ ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ خبرًا:

لَمَّا كانتِ النَّفسُ والمالُ محبوبَ الإنسان، والإنسانُ لا يُعرِضُ عن محبوبِه إلَّا لنيلِ ما هو أفضلُ وأعظمُ؛ دلَّ على أنَّ طلبَ الفوزِ أتمُّ عندهم من النَّفس والمالِ، وأنَّهم عالمون بموضعِ الفوزِ عارفونَ به[2].

طلبُ الفوزِ عندَ الله أهمُّ عند المؤمنين من طلبِ راحةِ النَّفس وكثرةِ المالِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/320، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/17، والبقاعي، نظم الدّرر: 8/418.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»